الباب الأول
تحليل الراهن الأدبى

obeikandl.com

obeikandl.com

ما أشبه
الليلة بالبارحة !!

وطننا فى محنة ....

وأدبنا العربى فى محنة ... فقد اتسعت وسائل التعبير الأدبى، وكثرت المجلات بكل اتجاهاتها وبكل أشكالها الفنية المتطورة وغير المتطورة وأصبحنا نجد فى أغلب القرى والمدن مطبوعاً يعبر عن مجموعات ثقافية مختلفة، وامتلك الكثيرون حرية التحرك فى إطار الديمقراطية المباحة والآخذة فى الاتساع، فوسائل المواصلات والاتصالات أصبحت أكثر يسرا، وطرق عرض الإنتاج الأدبى أكثر اتساعا، وعلى الرغم من هذه الفرصة المتاحة للاتصال بالجماهير وعلى الرغم من استقلالية أصحاب هذه المطبوعات ، فإن هذه المطبوعات غائبة عن المجتمع وأغلب الأدباء اتخذوا طريقا آخر فى اتجاه مضاد لحركة الجماهير، وأغلقوا الباب فى وجهها متعالين عليها مطالبين إياها بأن تصعدإليهم فى قمتهم المجهولة مدعين الفن للفن

تارة، ومدعين الواقعية تارة أخرى أو منغلقين على نواتهم كرد فعل لانهيار الأنظمة والمؤسسات فالفن أصبح تعبيرا عن الجسد المغلق على الذات وحسب، وهم فى حقيقة أمرهم يعكسون اختيارهم لطريق الخوف والمسايرة والتعمية، ووصل الأمر إلى حد اتهام كل من يحاول الاتصال بالجماهير "باليسار الطفولى" وأضافوا تهمة "المباشرة" و "التقريرية" إلى قائمة التهم التى يتعرض لها القلة القليلة التى تحاول أن تؤثر من خلال الكلمة الصريحة والمؤثرة فى دفع وعى الجماهير إلى المشاركة الفعلية فى بناء الوطن . وتعرضت هذه القلة إلى "الإرهاب الفكرى" بما لدى هؤلاء من مصطلحات ناتجة عن سلطة الفكر الأجنبى عليهم ، وهم بذلك يشاركون فى عملية الضياع الفكرى دون أن يدروا، وأصبحوا هم أنفسهم سواء مدعى الفن للفن أو مدعى الواقعية أو المنغلقين على جسد الذات يشاركون بنفس القدر فى تأكيد الشعور بالعجز والانهيار لدى نفوس أفراد الشعب. وكذا افتقدت ذاكرتهم أية صلة بتلك الروح الزكية الغنية بالجسارة لأولئك الذين دافعوا بأرواحهم عن الوطن ..

لقد كنت أتساءل منذ فترة طويلة لماذا اتجه الكثير من الأدباء إلى هذا المنعطف الخطير وتركوا الساحة خالية والجماهير بلا حماية أمام غزو "أحمد عدوية" و "كتكوت الأمير" و "فيفى عبده" وغيرهم من نتاجات شارع الهرم ؟ فى الوقت الذى تميز فيه هذا الشعب "بأن استغله وانتهكه على مدى قرون طويلة، وعلى حد سواء حكام غرباء عنه وساده وطنيون ؛ وكان تحت رحمة عناصر الطبيعة التى كانت قادرة على أن تحطمه بالمثل بما كانت تجره عليه من جدب وفيضان، مخلفة فى أعقابها الأوبئة والجوع، وكان يواسيه ويخادعه أئمته الدينيون . لقد بدا كما لو كان كل شئ واحد قد تآمر ضده ليجعل حياته بائسة وظروفه يرثى لها، ومع ذلك لم يكُن أحد من حكامه يرثى لحاله، وقد يبدو أنه كان رمزا لكل ألوان المعاناة التى كتبت على الإنسان بعد هبوطه من الجنة".(١)

كان يتردد فى ذهنى عدة مقولات -أولها " أنه لاشئ يحدث من لاشئ، ولكن كل شئ من أساس ومن ضرورة(٢) وثانيها .. قول "جارودى": أن طبقة منحطة ونظاما يحتضر يخافان من العلم ومن الروح الانتقادية ، ومن الواقع ذاته، فقد صار الواقع بالنسبة لهم كابوسا رهيبا مليئا بالتهديدات ذلك أن تناقضات النظام الداخلى

وانحطاط هذه الطبقة التاريخى تبدو كل يوم أكثر بداهة وتحتاج الطبقة المحتضرة إلى الكذب لتسيطر .....(٣)

وثالثها .. كنت أتساءل كما تساءل العالم الالمانى هولهولتز :

«لا أرى كيف يمكن دحض نظام مثالى ذاتى إلى أقصى الحدود لايريد أن يرى فى الحياة سوى الحلم؟» ولكن أى حلم يريده هؤلاء ؟ إنه الضياع....!!

حينئذ كانت مصر قد تعرضت اعتبارا من هزيمة عام ١٩٦٧ إلي أحداث جسام لم تتعرض لها البلاد طوال تاريخها الطويل – مما جعلنى أتذكر - فى قلق - ما قرأته من قول العالم التاريخى "ف-لولين جريفت" منذ سنوات بعيدة : "مازال الشعب المصرى يعيش على سنته القديمة فلاحو اليوم يحيون كما كانوا يحيون فى عصر بناة الأهرام ولو أن مصريا فى عهد خوفو بعث اليوم حيا لوجد نفسه فى بيئته عرفها وألفها تماما لولا ماطرأ على اللغة والدين من تغير وما وجد إلا القليل الذى ينبئ بأن مصر قد سلخت من عمرها خمسة آلاف عام"(٤). وكان فى ذهنى يتردد قول اللورد "دوفرين" عند قدومه إلى القاهرة بعد فشل الثورة العرابية "الشعب المستعبد بحاجة إلى اليد الحديدية وليس إلى نظام دستورى.....» (٥).

وجعلنى ذلك كله أتساءل ... لماذا كانت تفشل ثورات المصريين ضد الطغاة الذين يعودون بعدها أكثر بطشا وتجبرا وتقييدا للحريات، واستنانا للقوانين التى تؤكد شرعية البطش ..؟ فلماذا إذن فشلت ثورات أخناتون، والشهداء الوثنيين والمسيحيين والمسلمين ... ؟؟ ولماذا كان المصريون دائما يساندون الأجنبى لاعتلاء سلطة البلاد -كما فعلوا عندما ساندوا "كاسيوس" فى العصر القديم و "محمد على" فى العصر الحديث ؟!.

ولماذا لم يثر أولئك الذين حملوا أكثر من ثلاثة ملايين طن من الحجارة عند بناء الهرم الأول ؟ . ولماذا لم يثوروا ضد السخرة الطويلة والدائمة عبر أجيال ممتدة وطويلة ..؟؟ ولماذا لم يشقوا بطن ظالميهم كما قال الأفغانى .....؟!.

لماذا لم يحافظ الزعماء الوطنيون على مكتسباتهم حين أجبروا المماليك عام "١٧٩٥" بالاعتراف "بحجة " تمنع وحشية معاملتهم للفلاحين ؟؟ ولماذا لم نحافظ على مكتسبات ثورة "٢٣ يوليو ١٩٥٢" فحطمنا المرافق ووسائل الانتاج ... وبعنا القطاع العام ؟ ثم لماذا

وصل بنا الأمر لأن يوضع فى السجون كل الزعماء الوطنيين دونما أى اعتبار لأى قيمة صحية أو دينية أو فكرية فى سبتمبر الأسود عام ١٩٨٠ ؟.

ولماذا جرى الكثيرون وراء حزب الوفد عند عودته للانتخابات، وخاصة ممن دافعت عنهم ثورة "٢٣ يوليو ١٩٥٢ من الفلاحين والعمال وردت لهم حقوقهم المغتصبة آنذاك ؟ .

كنت أتساءل لماذا رغم هذه الحقائق يظل أغلب أدبائنا مغيبين عن الواقع ومصرين على العيش فى "التداعيات القديمة" ، والمدائن المنتهية " و "التقاطعات و "التطوحات" و "أفكار الشمال" و "الخراب الجميل" ، يستطلعون النبوءة ... !!! ثم لماذا فرح الشعب بفيلم ناصر ٥٦ ؟ !.

وإلى ماذا انتهى جهاد وتضحيات الوطنيين المصريين الذين ضاعت أسماؤهم من سجلات التاريخ ؟ أمثال أسعد مشرقى وإبراهيم موسى وأحمد رمضان زيان وعبد العزيز على وأحمد جادالله وسيد باشا وياقوت السهوى وعبد الله حسن عوض وسليمان حافظ ود.حسن نور الدين ومحمود العيسوى ،وأبطال إضرابات العمال فى الثلا ثينيات أمثال إبراهيم أحمد وعواد بسيونى أبو العلاء وسيد الخالع ، وشهداء الحركة الطلابية : الطالب الطنطاوى عبد المقصود شبكه بطل المعهد الأحمدى ومحمد عبد المجيد مرسى وعلى طه عفيفى وعبد الحكم الجراحى .

وإلى أين انتهى المطاف بأمثال الشاعرالمناضل كمال عبد الحليم والمناضلين من أمثال محمد شطا ومحمد مراد وعريان نصيف ، والآلاف غيرهم من أبناء مصر المناضلين من أبناء هذا الشعب الفقير الذي مازال يتطلع لأولئك المثقفين من أبنائه للأخذ بيده نحو تخليصه من قوى الظلم السائدة فى المجتمع ...

هنا كان التاريخ يمثل أمامى بوصفه مسارا للعقل ، والفرد بوصفه وحدة يمر بدرجات مختلفة من التطور ويظل هو نفسه ويسير الشعب بطريقة مماثلة حتى تصل الروح التى تتجسد فيه إلى درجة الكلية كما كان يرى هيجل(٦)

لقد خذل هؤلاء المثقفون على مر عصور تاريخ هذا البلد وشعبهم للدرجة التى أصبحوا فيها يمثلون نماذج الهزيمة والخوف والتردد عبر التاريخ ، حتى وصل الأمر بهم اليوم ليصبحوا الطبقة

التى تتجلى فيها هذه الروح المنهزمة . إنهم ورثة المترددين الخائفين عبر التاريخ البعيد .لقد أصبح أغلب هؤلاء الذين يفرضون على الأدب الحماية بوسائلهم من رواية، وقصة، وشعر ونقد هم هؤلاء الذين تناسوا قطاع البطولة الحية وروح المبادأة، أو تاجروا بها ، فأخذوا يؤصلون الروح التى تتلبسهم والتردى الفكرى الذى يلفهم فأتى أدبهم تكريسا للصمت والهرب واليأس والخوف والتجهيل والسوداوية وأصبحوا كالصامتين بفنهم الذى لايفهمه إلا هم ..... !!

كان هؤلاء يتصارعون وينفعلون حول إحدى القصائد الشعرية التى وضع فيها أحدهم لينين بين نهدى امرأة(٧) وكأن هؤلاء لم يعوا صراخ الشعب فى ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧ : "مش كفاية لبسنا الخيش... "جايين ياخدوا رغيف العيش "..

وكأنهم لم يعوا الصرخات الآتية من الماضى .. من أجدادهم الفلاحين أيام الاحتلال الإنجليزى . "إننا نثور من أجل الخبز والحرية والاستقلال ...."(٨)

فليقل أولئك مايقولون بحجة الفن أو الواقعية أو الجسد وحبيسته الذات أو المعاش والشيئى وليفعلواما يفعلون بحجة الحرية الشخصية لقد ورث هؤلاء الخداع والتمويه والزيف وعدم الإيمان بأهمية الجماهير، على نحو جعل الدكتور العالم الراحل حامد ربيع يقول "أن أخطر أدوات السياسة البريطانية كان بعض المثقفين الذين عانوا من عقد معينة فتولت تلك السياسة عملية تضخيم العقد والتوجيه اللاشعورى نحو الانزلاق فى القيام بدور معين هو لصالح ذلك التطور وأخطر هؤلاء هم أولئك الذين قدر لهم أن يقودوا الحركة الثقافية فى مصر ونتذكر منهم على وجه التحديد كلا من طه حسين، وأحمد لطفى السيد، والشيخ على عبد الرازق ....(٩)

وقبل هؤلاء بل والأخطر أن الذين ارتأت الجماهير فيهم روحها كانوا هم أولئك الذين انهارت على أيديهم آمال الجماهير فى العدالة الاجتماعية والقضاء على الاستغلال بشتى صوره الاقطاعية والرأسمالية الصاعدة نتيجة للتضارب والتمزق الذى سيطر على داخلهم فوصموا بعضهم البعض.

واحتارت الأجيال المتعاقبة فيما تقرأ : ..... فهاهو زعيم الأمة "سعد زغلول" .. .. كان أول تصادم له مع الملك عبر مائدة

البـوكـر(١٠) "وهو الذى قـد تصـادق مع "هارى بريل" ، و"اللورد كرومر"- ذلك الذى كان يرى أن التمثيل القومى فى مصر سخف واضح للعيان... "فالمصريون ليسوا أمة .. إنهم مجرد خليط بالصدفة لمختلف العناصر المركبة ".

..... وكان ذلك المحامى الباهر "سعد زغلول الذى تلقى دروسه الأولى فى السياسة بإشراف الأميرة الخديوية « نازلى » سليلة محمد على والموالية للإنجليز يرى أن ثورة مصطفى كامل ثورة «مجنون ينبح على القـمـر»(١١) قد ارتفع نجمه عندما تزوج بابنة مصطفى فهمى باشـا "أكبـر رئيس وزراء مـؤيد للانجليـز وعينه "اللورد كرومـر" فى منصب وزير المعارف "إذ أن اللورد كرومر هو المقترح تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف، وهذه الواقعة مسلم بها من الجميع"(١٢) وقـد صدر القرار بتعيينه فى ٢٨ أكتوبر عام ١٩٠٦ . وكان هذا المنصب حسـاس بصورة خـاصة ومصطفى كامل قد اشترك فى المظاهرات التى قامت ابتهاجا بإقالة الوزارة الفهمية "إذ كان مصطفى فهمى باشـا" بغيضـا على الأمة لمـالأته الاحتلال وأثار ثائرة اللورد كرومر لأنه كان يعتمد على خضوع مصطفى فهمى وإخلاصه للاحتلال.."(١٣) فمن يستطيع إذن إيقاف هذا المد الثورى المتصاعد لدى طلاب مصر سوى وزير للمـعارف قـوى الحجـة عـالى النبرة والخطابة مثل سـعد زغلول ، هذا الذى كان أخوه أحمد فتحى زغلول رئيس محكمة مصر الابتـدائيـة والذى اشـتـرك فى الحكم على الوطنيين فى حـادثة "دنشواى"(١٤) وهو أحد قضاة المحكمة المخصوصة والذى كتب الحكم الفـعلى(١٥) وكانت المحكمة برئاسة العميل الإنجليزى بطرس غالى وزير الحـقـانيـة ، وهو ذلك الذى أعلن وقف اجـتـمـاع اللجنة المشكلة لإنشـاء الجـامـعـة وأعلن انسـحـابه إبان توليه وصـعـوده إلى وزارة المعارف وهو الذى عارض فى مارس ١٩٠٧ جعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية"(١٦) فقد قال "إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية وشرعنا فيه فإننا نكون أسأنا إلى بلادنا وإلي أنفسنا إساءة بالغة لأنه لايمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا فى الجمارك والبوسطة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة"(١٧). هكذا كـانت النظرة للأمـور شكلانيـة ، وهو ذلك الذى تولى الحـقـانيـة عـام ١٩٠٨ فـأيد المشـروع الاستعمارى لقناة السويس، وسجن الزعيم محمد فريد فى عهده لمدة

ستة أشهر بسبب كتابته لمقدمة ديوان "وطنيتى" للشاعر على الغاياتى، وعن هذه الفترة يقول المناضل "محمد فريد" عند خروجه من السجن :إنى خارج إلى سجن آخر هو" سجن الأمة المصرية" الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال ... إنى خارج إلى سجن أضيق، ومعاملة أشد -إذ أصبح مهددا بقانون المطبوعات، ومحكمة الجنايات، محروما من الضمانات التى منحها القانون العام للقتلة وقطاع الطرق فلا أثق أنى أعود لعائلتى إن صدر منى مايؤلم الحكومة من الانتقاد ، بل ربما أوخذ من محل عملى إلى النيابة فالسجن الاحتياطى فمحكمة الجنايات إلى السجن النهائى ..."(١٨) فما أشبه الليلة بالبارحة !! ، وهو الذى اشترك فى اللجنة الحكومية لتكريم "اللورد كرومر" فى حفلة خاصة - امتدح فيا اللورد كرومر "بطرس باشا غالى" ثم سعد زغلول باشا ورمى المصريين عموما بنكران الجميل لأنهم لايعترفون بفضل الاحتلال وقال "اللورد فى هذا الصدد : "أن أولاد العميان يولدون عادة مبصرين" .... مؤملا أن الجيل المقبل يعترف بفضل الاحتلال ....."

..... ويمضى شريط الأحداث والتضارب والتجنى مع أولئك الذين أتاح لهم التاريخ فرصة أن يقودوا هذه البلاد سياسيا وفكريا - ففى عام ١٩٢٠ انخفضت أجرة العامل من (٦٠ - ٨٠) مليما الى (٤٠ - ٤٥) مليما عام ١٩٢٨. وكان مصطفى النحاس قد أقيل من منصبه فى منتصف هذا العام بسبب فضيحة مالية ، وهو الذى قد قام برفع راتبه عقب تولية رئاسة الوزارة، وهو الذى تزوج بامرأة تصغره بثلاثين عاما، والتى جمعت ثروة طائلة نتيجة لاستغلالها لنفوذها بدعوى احتكارها لسوق القطن . بل كان مصطفى النحاس باشا وهو الذى قال يوما فى ثورة ١٩٢٥ مناشداً المرأة المصرية المشاركة فى الثورة : « اغضبى أيتها المصرية ، فإنك إن لم تغضبى فليس لك أن تنجبى » كان الزعيم الوطنى - زعيم الأمة طرفا فى مهزلة مع امرأة أوربية تدعى فيرا(١٩) وعن خطبه يقال - إنه كانت تصرف مبالغ من المال لمصفقين مأجورين يقاطعونه باستمرار أثناء خطبه بهتافاتهم "يحيا النحاس باشا..!"، وفى بعض الأحيان - قد تدفع به زعامته الشعبية - اذا ماوجد أن الهتافات المأجورة تقاطع خطبته إلى أن يصيح فى الجماهير قائلا : "اخرس يابن الكلب إنت وهوه..!!"(٢٠) . وكان صدقى الذى أرسى قواعد للسلوك السياسى -

امتدت بعده سنوات طوال والتى تمثلت فى الإرهاب والقتل والتزوير والاعتقال، وكان فى وقت أكثر تبكيرا واحدا ممن كانوا فى صفوف الوطنيين".

وكما كان رأى الرئيس الأمريكى "ويلسون" :- بأنه هو وشعبه الأمريكى يعطفان كل العطف على أمانى الشعب المصرى المشروعة، لتوسيع نطاق الحكم الذاتى(٢١) - كان الشيخ على يوسف يعلن "أن الإنجليز يستطيعون أن يستميلوا هذه الأمة بالمعاملة الحسنة فيستولوا على القلوب بدلا من الاكتفاء بالاستيلاء على الطوب"(٢٢)

وعلى النحو نفسه لايمكن أن نغض البصر عن خطورة دعوات المثقفين والمفكرين والساسة آنذاك لانهم أورثوا الأجيال المتعاقبة بعدهم التراجع، والتضارب، والمهادنة، والمداهنة ... فهذا طه حسين صاحب المواقف القوية الذى رفض أن يبيع نفسه للقصر الملكى ويتولى رئاسة جريدة حزب الاتحاد حزب الشيطان - كما وصفه زعيم الأمة - يسحب كتابه عن "الشعر الجاهلى" ، ويكتب خطابا دافع فيه عن نفسه كمسلم مؤمن، ولكن فى السنة التالية - نشره تحت عنوان مختلف - بعد أن حذف أكثر الفقرات إثارة للهجوم عليه"(٢٣) ... وهذا "محمود عزمى" "مثقف يعلن اشتراكيته أحيانا ويخفيها أحيانا كثيرة، وقد كان متزوجا من روسية بيضاء لها ابن عم بلشفى معروف ... فكان يستغل الموقف على الوجهين، وهذا "عزيز ميرهم" أرستقراطى يؤمن بالاشتراكية إيماناً راديكاليا، ولكنه مجرد إيمان عقلى لايدفعه إلى اتخاذ أى خطوة ايجابية وينتهى به الأمر عضوا فى مجلس الشيوخ، وأحد وسائل الوقد لإخضاع الحركة العمالية لنفوذ البورجوازية." (٢٤)

وانهمك "سلامة موسى" فى دعايته الشكلية من استبدال للحروف العربية إلى الحروف اللاتينية ومن استبدال الطربوش إلى القبعة، وبينما كان يشن حملاته المتعددة، ودفاعه عن طبقات المحرومين، ودعوته إلى شن حملة من أجل ضبط النسل ... كانت زوجته قد أنجبت له ثمانية أبناء ...!! وحينما كانت كلماته تلتهب حماساً في دعوته إلى مقاطعة البضائع الإنجليزية حيث كان يقول آنذاك "فلا تذق خبزا تعرف أنه خلط بدقيق أجنبى، ولا تأذن بدخول شئ من الطعام الأجنبى فى منازلنا"، كان بحثه المعروف باسم :"اليوم والغد "حيث من خلال معالجته لعلاقة مصر بالعرب يعلن ليس علينا

للعرب أى ولاء، ويعلن "فلنول وجوهنا شطر أوربا ، ويؤكد بأن على مصر ألا ترتبط إلا بالأوربيين الذين هم وحدهم التلطف الأذكياء"(٢٥) ، فالمصرى يكتسب إذا تزوج من الأوربيين ولكنه ينحط كل الانحطاط اذا مزج دمه بدم الزنوج، وفى مصر نحو ربع مليون أوربى لو أنهم مزجوا فى جسم الأمة العربية لاكتسبنا بهم نشاطا وذكاء وجمالا وهم ليسوا أجانب عنا إلا فى اللغة لأننا أوربيون مثلهم..."(٢٦).

وكان أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل، يعلن أنه : ليس من الممكن مقاومة الاحتلال ولا مقاومة الخديوى .. ولذا فليس هناك سوى طريق واحد هو طريق التطور التدريجى للعادات الجديدة وللأخلاقيات الجديدة.

لقد ظل الشعب المصرى يتعرض خلال تاريخه الطويل إلى تخلى الطبقات المثقفة عن مواجهة الظلم والقهر وإلى لجوء هذه الطبقات إلى أحضان السلطة وتحولها إلى أداة مركزية للبطش ، أو لجوئها إلى التقوقع والهرب من المواجهة ومن استمرارية الحياة – حتى أصبح الصمت واليأس ظاهرة مصرية تعبر عن الهرب من المسئولية والعجز عن مواجهة قوى الظلم، ولها جذورها الضاربة فى تاريخ المجتمع – ابتداء من إعطاء قدر كبير لفلسفة الصمت أثناء العصر الفرعونى المتأخر، ففى أعقاب عدم استطاعة الآلهة المصرية القديمة تحقيق الاطمئنان فى المجتمع المصرى، وتمكن العناصر الأجنبية من احتلال مصر فترات طويلة، واستبدال الآلهة المصرية بآلهة أجنبية أضحى الصمت ضرورة لابد من الالتزام بها لتوخى السعادة، لأن قصر الآلهة لايمقت إلا الضوضاء فالآلهة تحب الإنسان الصامت أكثر من الإنسان المرتفع الصوت ويقول "أيبوور" : وأصبح كل قلب شجاع حزينا لما أصاب البلاد، وغدا الأجانب هم المواطنون ، وصاح الأطفال ليتنا لم نولد بعد، ويتساءل "أيبوور" فى نصوصه لماذا تمكث التماسيح تحت الماء طويلا ؟ وذلك لكثرة ماحصلت عليه لأن الناس ينتحرون من اليأس ويستطرد فى"نص اليأس" من الحياة بالقول أنه لايستطيع أن يتحدث اليوم لأحد لأنه ممتلئ بالتعاسة لأن – الخطيئة تعم الأرض كلها!!".

بالإضافة إلى هذا فقد شهد المصرى الذى كانت تنتهكه قوى الطبيعة والفيضان والجدب والأمراض، وتثقل كاهله الضرائب والمكوس والعبودية "أنواعا غريبة من تجبر الحكام ومن تسلطهم على

الرعايا، وأنواعا أغرب من انتهاك حرمة الإنسان وحريته وجسده، وأنواعا اختفت من ذاكرة الناس بمضى الزمان مثل - التوسيط والتعصير (أن يعصر الإنسان داخل معصرة) وتقصير الأكعاب، وتقطيع الأعضاء والتعطيش (بأن يعطى الانسان ماء الجير المملح ثم يترك بلا ماء حتى يجف جلده ويتشقق ثم يبدأون فى تقطيع جلده الجاف بمنشار..)(٢٧) ورؤوسا محشوة بالتبن وأجسادا مسمرة بالمسامير على الجدران ..."(٢٨).

وهكذا كان «الشعب المصرى يتعرض خلال تاريخه الطويل إلى هذا البطش والقهر الأبديين، لكنه بقى على امتداد عصوره التاريخية المختلفة مهما يدعى البعض أنه قد تم صياغة ذاته بعد دخول المسيحية، وبالكامل بعد دخول الإسلام، فتغيرت لغته، وديانته حتى ثبتت على لغة الإسلام ولقد «بقى حياً» على الرغم من تآمر كل الصاعدين من أسفل السلم الاجتماعى والسياسى إلى أعلاه وكل الذين تخلوا عن تاريخهم النضالى وغرهم بريق السلطة فوقعوا فى إسار النخبة ومارسوا دورهم بوفاء شديد وخنوع فى خدمة مصالح السلطة وأتباعها .

ولاشك أن الذات المصرية الآن هى نتاج التطور التاريخى بما يحمله هذا التطور من العناصر التى تكون البناء النفسى والسلوكى للشخصية المصرية بحيث تعتبر الذات المصرية ببعدها التاريخى العميق إحدى المقومات الجوهرية التى تشكل السلوك الفردى والجماعى فى المجتمع المصرى، وللشعب المصرى بكل فئاته وعناصره ، كما أن تاريخ هذه النخبة هى نتاج التطور التاريخى لها أيضاً وهى من هذا المنطلق تصلح لأن تكون بداية التحليل السلوكى للظاهرة الثقافية فى مصر، على اعتبار أن تلك الذات تتفاعل مع الوسط البيئى الموجودة بداخله والمعبرة عنه فى شكل من أشكال الخطاب الثقافى كسلوك بشرى .. ويعبر بالضرورة عماآلت إليه وأصبحت فيه من هوية مشوهة، نفعية الملامح، وتابعية الدور، وتغيبية الوعى.

والمأساة الآن أن أغلب الأدباء قد أصبحوا ضمن هذه النخبة يخلطون بين الحق والسلطة الجائرة، ويبررون التوافق الزائف بين الضدية لها وبين التبعية لها والوقوع فى إسارها وممارسة أغلاطها، وارتقاء أعتابها، والتخلى عن موقعها الحقيقى فى مقاومة القبح والظلم والاستسلام ثم يجهزون على ماتبقى اديهم من تميز بزجر الجماهير والشعب الذى خرجوا منه، والتعالى عليه واتهامه بالجهل والتخلف

وبالتحجر ويتهكمون عليه بالنكات البذيئة ويقذفون معتقداته الدينية والحياتية بأبشع أنواع الشتائم ويهاجمونه تلذذاً وادعاءً بالتقدمية، ثم يزيفون إرادة الشعب ثم يجلسون على منصات الندوات والمؤتمرات ويأخذهم التصفيق والهتاف وأحياناً الضحك ونظرات السخرية ثم يخرجون – وكأن الأمور لاتعنيهم – إلى جحورهم حيث الخمر والشذوذ والمجون .

obeikandl.com

المراجع

١- عفاف لطفى السيد، تجربة مصر الليبرالية -١٩٢٢-١٩٣٦، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة، ١٩٨١، ص٢٦.

٢- السيد نفادى، الضرورة والاحتمال بين الفلسفة والعلم، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ ص٢٢ . ١٥٣.

٣- روجيه جارودى، دار دمشق للطباعة والنشر، سوريا، ص٤٤٤.

٤- ف.لولين جريفت، الانقلاب الدينى فى مصر، تاريخ العالم نشره بالانجليزية، السيرجون كاها مترس، ترجمة إدارة الترجمة بوزارة المعارف مكتبة النهضة المصرية العدد (١٣)، ص٣٢.

٥ . بوندار يفسكى، سياستان إزاد العالم العربى دار التقدم موسكو، الترجمة العربية، ١٩٧٥، ص٤٧.

٦- هيجل، محاضرات فى فلسفة التاريخ، الجزء الأول، العقل فى التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ص١٥٥.

٧- من إحدى ندوات اتيلية القاهرة فى منتصف يناير ١٩٨٥.

٨- د. رفعت السعيد، تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠-١٩٢٥، الطبعة الثانية ، دار الثقافة الجديدة، القاهرة. ص٤٧.

٩- د. حامد ربيع، الثقافة العربية بين الغزو الصهيونى وإرادة التكامل القومى، دار الموقف العربى - القاهرة - ١٩٨٣- ص٢٠٣.

١٠- د. عفاف لطفى السيد، تجربة مصر الليبرالية -١٩٢٢-١٩٣٦، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة، ص٩٦.

١١- نفسه ، ص٨٠

١٢- عبد الرحمن الرافعى، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، الطبعة الأولى، ١٩٣٩ ، مطبعة الشرق ، ص٢٤٤.

١٣- نفسه، ص٣٠٧.

١٤- نفسه، ص٣٩٩.

١٥- نفسه، ص٤٠٢.

١٦- نفسه، ص٤٠٢.

١٧- عبد الرحمن الرافعى، محمد فريد، رمز الاخلاص والوطنية، تاريخ مصر القوم

١٨- عبد الرحمن الرافعى، محمد فريد رمز الأخلاص والوطنية، تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ / ١٩١٩ .

١٩- تجربة مصر الليبرالية ، ص٢١٠.

٢٠- نفسه، ص٢٢٤

٢١- شهدى عطية الشافعى، تطور الحركة الوطنية المصرية -١٨٨٢-١٩٥٦، دار شندى للنشر، القاهرة الطبعة الثانية ١٨٨٣ ، ص٣٤
٢٢- تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ، ص٢١.
٢٣- تجربة مصر الليبرالية ،ص٣٤١.
٢٤- تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر، ص١٠٦.
٢٥-د . حامد ربيع، المرجع السابق ص٢٠٠.
٢٦- صلاح عيسى، سلامه موسى المندوب السامى للفكر الاستعمارى، مقال ، مجلة الثقافة الوطنية – القاهرة – عدد يناير ١٩٨١ ايداع دار الكتب رقم ٤٣٧٥/١٩٨٠.
٢٧- د. رفعت السعيد، الجريمة وثائق عملية اغتيال شهدى عطية، دار شهدى للنشر، القاهرة، ١٩٨٤، ص١٠ .
٢٩- نفسه ص١٠.

obeikandl.com

الفصل الأول :

الجانب السلوكى

obeikandl.com

obeikandl.com

(ديناميات السلوك)

يأبى الواقع العربى "إلا أن يجعل مَنْطقَه الحقيقى فى التطور وأداته فى التغيير هى الثقافة وظيفة المثقفينَ"(١) ، ويشكل الأديب، إحدى الفئات فى طبقة المثقفين بما لها من قدرة في التعبير بالكلمة المتمثلة فى أثرها الأدبى – تلك التى تفترض أن تعبر عن الضمير الواعى لهذا المجتمع، دافعة إيَّاه إلى التلاحم والتماسك ليتشكل أفراده داخل بوتقة واحدة ينصهر فيها الجميع من أجل النهوض بالمجتمع على أن هذه النظرة التى تبدو للكثير أنها مثالية – لاتسير بهذا المنطق – ذلك أن الأثر الأدبى بصفته تعبيراً قد خرج إلى عالم الوجود، وأصبح يعبر عن نفسه فى هذه الوسيلة أو تلك، وهو بإعلانه هذا صار سلوكا فعليا ناجما عن الأديب، وعليه فإنه يخضع لعوامل التحليل السلوكية، وللمؤثرات التى يتعرض لها السلوك الإنسانى فى كل مراحل تكوينه فى المجتمع لعلاقاته المتشابكة المتفاعلة فى آن واحد .

وعليه فإنه يصبح إحدى أشكال السلوك البشرى فى أوسع معانيه – الذى هو حقيقة نفسية واجتماعية ونظامية فى آن واحد(٢)، وهو يصبح بذلك شكلا للسلوك الفردى وتعبيراً عن موقف الفرد

واستعداداته الداخلية إزاء المواقف البيئية المحيطة به والموجود بداخلها، وعليه فإن الدعوة الدائمة إلى فصل النص الأدبى عن الأديب وسلوكياته الحياتية يجب أن نرفضها - لما تسببت فيه من أزمة حقيقية تمثلت فى تدعيم نزعات التبرير والتمويه لدى هؤلاء، فانفصلوا بأدبهم وسلوكياتهم عن المجتمع، وهم معتقدون أنهم يعبرون عنه وأنهم سائرون نحو التغير .

إننا نجد أمامنا ثلاثة مرتكزات أساسية :-

أولها : أن الأديب ينتمى إلى المجتمع ببعده التاريخى وحاضره وطموحاته .

ثانيها : أن الأديب ينتمى إلى طبقة المثقفين ببعدها التاريخى وموروثاتها السلوكية والحياتية .

ثاليها : أنه ينتمى إلى جماعة الأدباء التى تصبح اليوم بما آلت إليه طبقة متميزة عن بقية المثقفين لها مقوماتها ولها أسباب وجودها ونظامها الذى يحكمها .

وتشكل هذه المرتكزات الثلاثة فى تحليلها وفى تفاعلها خلال مسار الفرد فى البيئة وببعدها التاريخى قاعدة للتحليل الديناميكى للأدب كظاهرة للسلوك البشرى. "فنحن منذ ولادتنا عرضة لأنْ نتلقى من محيطنا، وعبر مئات الطروحات الواعية أو اللاواعية سستاما معقدا من المعايير والمقاييس، قوامه الأحكام القيمية والبواعث ومراكز الاهتمام، بما فى ذلك تلك النظرة التأملية التى تفرضها علينا تربيتنا وتجعلنا نرى الصيرورة التاريخية لحضارتنا بمنظار معين، بدونه تصبح هذه الحضارة مستعصية على الاستيعاء، أو مناقضة للسلوكيات والتصرفات الفعلية . ونحن نتجول بالمعنى الحرفى حاملين سستام المعايير هذا".(٣)

وتتحدد خصائص الظاهرة السلوكية فى أنها :

١- مجموعة تصرفات خارجية أو تعبيرات مستقلة، ذات كيان قائم بذاته ، بمجرد صدورها تنفصل عن مصدرها ويصير لها وجودها الذاتى . وهى بهذا المعنى قابلة لأن تخضع للتحليل المباشر الموضوعى الذى لايقوم على التصور، وإنما يستند إلى إمكانية الإمساك والاحتضان للظاهرة .

٢- وهى تخضع رغم استقلالها الذاتى لعلاقة معينة بين الباطن الذى تصدر منه والعالم المحيط بالذات،مصدر الظاهرة وهذه

العلاقة هى تعبير عن منطق عام للظاهرة

٣- والسلوك بهذا المعنى يصير مرتبطا ومعبراً ولازما لكل دراسة ديناميكية أو حركية لأى ظاهرة من الظواهر.(٤)

وعلى ذلك يصير الأثر الأدبى كظاهرة للسلوك البشرى تعبيراً موضوعياً عن الأديب من ناحية وتعبيراً موضوعيا عن تصرفه إزاء المواقف التى تواجهه فى الحياة من ناحية أخرى . وذلك من خلال بعده التاريخى العميق وتراكمه حتى مساره هو في الحياة، واتجاه نحو ازدياد التراكم .

ويصبح النتاج الأدبى وشكله النهائى (النص) كظاهرة سلوكية بشرية تعبيراً فى حقيقته شكلاً ومضموناً عن إعادة التوازن بين القوى المتصارعة داخل الذات الأدبية وبينها وبين العوامل الخارجية من أجل مواجهة المواقف المتجددة والمتعددة . وتتخذ هذه الظاهرة أبعاداً متعددة أبرزها – التمزق أو التأزم، وهو نتاج "حالة الجذب بين أكثر من قوة واحدة تخضع لها الذات الساعية نحو الحركة فى سبيل اختيارها لتلك الصورة أو الأخرى من صور ردود الفعل"(٥) وحيث تخضع الذات الأدبية عند إنتاجها للنص الأدبى إلى عوامل التمزق بين متطلبات الحياة والرغبات والطموحات والآمال، وبين القيم والنظم الاجتماعية السائدة . بالإضافة إلى عدم التقدير الاجتماعى والخوف من الإرهاب الفكرى والجسدى، وإلى التعبير عن القوى الاجتماعية المطحونة ، و إلى الصراع بين نظريات الفن الآتية إلينا عبر التراث الغربى – أو ماهو مستورد من تلك النظريات بالإضافة إلى التعرض لضغوط الجماعات السياسية والفكرية والقوى السياسية الخارجية والداخلية ، ومن هذا الصراع ينشأ التأزم .

وفكرة التأزم تعود إلى مايسمى بالقرار "وهو حركة شعورية يقصد بها التخلص من موقف معين، فالقرار إنهاء للصراع بين قوى التأزم"(٦) والنتاج الأدبى هو نفسه هذا القرار .

القرار يحدد ويبلور تصرفات وانتماءات الأديب، ونتائج الصراع بين قوى الجذب وإلى أى قوى من القوى الفكرية والسياسية ينتمى الأديب وينحاز .

والنتاج الأدبى كقرار سلوكى تحقق – يكشف لنا بعداً آخرا يتحدد فيما يعرف بنظرية التماسك "والتى تمثل القوى الجاذبة التى تمنع الفرد من الانفصال عن الجماعة"(٧)، ومنها الوضع الاقتصادى

ومكاسبه وإغراءات الحياة المادية والارتباط الفكرى والخضوع للسيطرة الفكرية والقيادية للجماعة والخوف من إرهابها، أو الارتباط بالقوى السياسية والاجتماعية، أو القوى القمعية فى المجتمع، وهى تطرح أمراً هاما وخطيراً يبين تردى الأوضاع الأدبية حيث يؤدى دراسة النتاج الأدبى كظاهرة سلوكية ديناميكية - إلى الكشف عن قوى التماسك وإلى إزالة الأقنعة حول الجماعات الأدبية وانتماءاتها الحقيقية، وإلى أى فئات الشعب تنحاز، ولمصلحة من تروج "خداعها الأدبى" وأفكارها . ويعرف "ستنجر" مفهوم التماسك بأنه "الميدان الكلى للقوى التى تزاول آثارها على أفراد وأجزاء الظاهرة لتفرض عليها البقاء في الجماعة"(٨)

وهى تطرح مشكلة الوضع القائم التى تصدر فيه ، ويصفها "لوين" بأنها عملية ديناميكية تخفى وتتستر خلفها حقيقة تطورية من الممكن اكتشافها ويعرفها "لوين" "بالتوازن فى حالة شبه الاستقرار"(٩) ، وهذا يفسر لجوء بعض الجماعات الأدبية والأدباء للمحافظة على مكاسبهم الأدبية والمادية النهمة فيحافظون على الوضع القائم بطرقهم غير المباشرة - سعيا وراء التوازن فى حالة شبه الاستقرار - سواء عن طريق مايعرف بالتعمية وتعمد الغموض والتجهيل والتقوقع داخل جسد الذات وحسب، ونظريات الفن للفن، وفكرة الصفوة الوحيدة القادرة على حمل المسئولية التغييرية، واللجوء إلى التنظير الفكرى الذى هو في الواقع شكل تبريرى لمواجهة الضعف والنقص فى مواجهة تغيير الواقع - بل ينطلق هذا التنظير من الشكل الفردى إلى شكل تنظيم تصاعدى للسلوك التنظيرى - ليصير معبراً عن جماعة بعينها تتداخل علاقاتها ومصالحها المادية، وتتشابك وتتحد مع أطماعها ورغباتها فيتصاعد السلوك الشخصى الفردى إلى سلوك اجتماعى .

وبالدراسة والتحليل يمكن معرفة المراحل التى مر بها هذا التصاعد السلوكى . إبتداءً من مرحلة المبررات وهى تشكل الوعاء الخفى الذى يكمن فى داخل الذات الأدبية حيث تتشكل فيه المركبات الناتجة عن تطور الذات الأدبية فى المجتمع، وهى تتحدد وتنعقد شعوريا ولا شعوريا مع الدوافع والحاجات والرغبات والغرائز وهذه المرحلة هى "حالة باطنة سابقة على الحركة ومعدة لها"(١٠) وتسيطر على كل حقيقة بشرية ، فرداً أو جماعة غريزة "الدفاع عن البقاء،

والتعبير عن القوة الذاتية وهى تعبر عن نفسها فى حاجة نفسية تمتاز بالتصاعد والتبعية، فهناك الغرائز – الجنس – الجوع والعطش، ثم إلى جانب ذلك سلسلة من المبررات الاجتماعية تتدرج إبتداء من الحاجة إلى الشعور بالأمان وتنتهى بالرغبة فى تحقيق الذات الفردية"(١١) وفى هذه المرحلة يتأثر النتاج الأدبى – شكله ومضمونه – بحيث يشكل النص الأدبى الغطاء الذى يحتمى به الأديب فتأتى لغته ومصطلحاته المستحدثة كمعادلة تبين المقدرة على متابعة مستحدثات الفكر العالمى، والانتماء إلى مدارس أدبية تتسم بالكونية والعالمية، أو محاولات التنظير الفكرية والأدبية فى شكل لايستطيع أحد أن يأخذ عليه مأخذاً فى أنه ضد الثورة، أو التغير – بل هم الساعون ظاهرياً إلي الثورة والتغيير والفن ، فالفن متسع للجميع، ويحمل وجهات نظر . وتصير هذه الطرق هى الغطاء لمرحلة المبررات التى تعتمل فى الذات الأدبية، بحيث تطفو فى شكل القرار/ النتاج الأدبى. والذى أوصلها إليه المنبه "وهو واقعة أو حدث لابد وأن يعقبه نوع من الاضطراب الذى يؤدى إلى سعى من جانب الحقيقة الحية لإعادة ذلك التوازن"(١٢)، ومحاولة الذات الإنسانية إعادة التوازن فى شكل النتاج الأدبى كقرار سلوكى، محاولة هامة للغاية حيث يرتكز تحقيق هذا التوازن على عوامل المصالح المادية والجنس والقيم والمعايير والتقاليد والقواعد النظامية السائدة فى المجتمع وهو يؤدى – بالتالى إلى ظهور النتاج الأدبى التبريرى وتنظيراته لمواجهة إشكالات الواقع الاجتماعى والفشل فى تحقيق التغير في المجتمع ، أو الوقوف مع الطبقات المطحونة، أو مواجهة السلطة القائمة ومصالحتها وكما يقول "لوين" فإن السلوك الفردى يتكون من مجموعة من المتغيرات تضم كلا من الفرد – ذاته والوسط والبيئة التى ينتمى إليها الفرد . هذه المجموعة من المتغيرات هى المجال الحيوى التى تشمل مجموعة من الوقائع التى تؤثر فى الفرد سواء كانت تلك الوقائع اجتماعية أم طبيعية، شعورية أم لا شعورية "(١٣)

ويصبح القرار – النتاج الأدبى فى شكل إعلان إرادة تعبر ألفاظه وجمله وتعبيراته عن مصدر سلوك الذات الأدبية، فى شكل من النشاط الإيجابى يأخذ شكل النص الأدبى، وبتحليلها يمكن اكتشاف مدى زيف إعلان الإرادة هذه ومدى تضاربها وتناقضها أو مدى توافقها مع الاتجاهات العاملة داخل الذات الأدبية ويتضح منها إلى

أى مدى يتناقض الأديب بين ماينادى به وبين مايفعله فى الواقع بل يفضح لجوء الذات الأدبية إلى الهرب بمحاولات التعمية والتجهيل فى النص الأدبى، والترويج لحجج الفن والصفوة حتى يتمكن الأديب من تبرير تناقض أفعاله وسلوكياته وهربه من تغيير الواقع الإجتماعى، بقواه المتعددة من قيم وعادات وتقاليد ونظم وقواعد نظامية، تسمى بقواعد الضبط الإجتماعى، بل يزجرون الجماهير ولا يتحسسون أو حتى يتلمسون هذا الواقع وعوامل القوة التى تساعد علي التغيير . هذا الواقع الذى هو المنبه بالنسبة للأديب، وللمثقف، والمفكر "والتراث الحضارى والمشكلة السياسية، أو الثقافية التى يواجهها المجتمع الذى ينتمى إليه"(١٤)

والأدباء إزاء حرصهم هذا، وعدم قدرتهم على تغيير هذه القوى العاملة فى المجتمع، أو تعديلها لصالح الطبقات المطحونة ، واستغلال النواحى الإنطلاقية فيها، وإزاء استغلالهم لمكاسب الطبقات المطحونة التى حملتهم على أكتافها، يلجؤون إلى "التوفيق بطريق التهرب، حيث يكون رد فعل الحقيقة البشرية، إزاء الموقف هو الفرار عن مقتضيات الموقف"(١٥) أو إلى التوفيق بطريق الدفاع والذى هو صورة من صور السلوك الاستفزازى أو السلوك العدوانى"(١٦) ، وهو فى مجالنا الأدبى يأخذ شكل الإيمان بمصطلح الصفوة، وتضخيم الأنا، وزجر الجماهير، ورفض تثوير الأدب ، ونكوص الذات، والترويج للفن كفن خالص فى شكل يأخذ المنطق الدعائى وعمليات غسيل المخ بطريقة علنية وسافرة .

ونظراً لفشل الذات الأدبية فى عمليات التوفيق هذه – وخداع المجتمع الذى مالبث أن انفصل واستقل هو نفسه فى حركته نحو التغير عن هؤلاء المزيفين – الذين يقعون نتيجة لفشل الذات فى حالة من حالات القلق يعبر عنها علماء النفس بكلمة الحصر النفسى وهو "حالة مرضية تعنى عدم التوفيق الكلى أو الجزئى" !!.

وهى تؤصل فى النتاج الأدبى الهزيمة والقوقعة، والغموض والفشل الشديد والانهيار الكامل والانتحار والصمت، وألفاظ الهزيمة مثل "انخرق – اتشتت – اتمحور – اجرجرنى ، اقتلنى، أشيعنى ....." والوقوع فى بذاءات المراهقة الشاذة، وأفكار العادات السرية، والفعل النرجسى فيسودون الصفحات بكل هذا مدعين –باطلاً– أن هذا هو التقدم وأن هذا هو النص الجديد الذى سوف يغير الواقع ...

لكنهم الآن... في معزل عن الحياة ... يخشون الخروج منه .... فقد تفتك بهم أرواح الشهداء وأصحاب البطولة وأبناء المقاومة والنضال والشعبيون المقهورون !!.

obeikandl.com

المراجـــع

١- د. حامد ربيع، المرجع السابق، ص١٤٢.
٢- د. حامد ربيع، مقدمة فى العلوم السلوكية حول عملية البناء الفكرية لأصول علم الحركة الاجتماعية، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة ١٩٧٣، ص١٤٤.
٣- كلود ليفى شتراوس، مقالات فى الأناسة، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، ترجمة د. حسن قبيس، ص١٨٦.
٤- د. حامد ربيع ، السابق، ص٥٦.
٥- نفسه، ص١٢١.
٦- نفسه، ص١٢٣
٧- نفسه، ص١٢٣.
٨- نفسه، ص١٢٤.
٩- نفسه، ص١٢٤.
١٠- نفسه، ص٩٤.
١١- نفسه، ص٩٤.
١٢- نفسه، ص٩٤.
١٣- نفسه، ص٨٣.
١٤- نفسه، هامش، ص١٢٨.
١٥- نفسه، ص١٤٦.
١٦- نفسه، ص١٤٦.
١٧- نفسه ، ص١٤٧.

obeikandl.com

الفصل الثانى:

الجانب السياسى

obeikandl.com

obeikandl.com

(استراتيجية بعيدة المدى !!)

على الرغم مما قاله ... الرئيس الراحل أنور السادات، فى ورقة أكتوبر :-

"إننى أرفض الدعوة إلى تفتيت الوحدة الوطنية بشكل مصطنع عن طريق تكوين الأحزاب، ولكننى أيضا لا أقبل نظرية الحزب الواحد الذى يفرض وصايته على الجماهير، ويصادر حرية الرأى" .

لقد نجح الرئيس السادات فيما لم ينجح فيه أحد فقد استطاع أن يقيم تعدد الأحزاب، وأن يقيم الحزب الواحد الذى يستخدمه كأداة لفرض أفكاره وسلطاته وسياساته على الجماهير، وفى إطار أزمة الديمقراطية يقول الدكتور على الدين هلال - عن مجمل سياسات السادات أنها "تفيد فى المقام الاول أقلية موسرة على حساب أغلبية مطحونة - بل لقد بدا أحياناً أن هذه الاقلية الموسرة تسيطر على جهاز الدولة وتوظف مؤسساتها لاستصدار قوانين وقرارات لصالحها الأمر الذى أعاد إلى الأذهان مرة أخرى قضية أثيرت فى التاريخ السياسى المصرى، وهى قضية نزاهة الحكم ....."(١)

obeikandl.com

واستغل الرئيس السادات الشكل الديمقراطى الظاهرى المتمثل فى تعدد الأحزاب، وتضخيم شعرة الحرية الظاهرية والواهية أمام الجماهير والجماعات الثقافية، وساعده فى ذلك استغلاله الجيد لانتصارات أكتوبر ١٩٧٣، ونجاح الأجهزة الأعلامية وفى تصوير السلام الأمريكى ومساعدة أمريكا لإنقاذ الشعب المحروم من ورطته الاقتصادية. وكانت زيارة "نيكسون" والاستقبال الشهير له ، بالإضافة إلى نسيان مساوئ فترة الحكم السابقه عليه، وإطلاق الأحكام عليها، واستطاع من خلال هذه العوامل أن يحقق :

أولاً – السيطرة على مقدرات الشعب باعتباره «أبو العائلة المصرية» .

فهو صاحب وسام القضاء والقانون، ورئيس المجلس الأعلى للقضاء، والحرب والسلام ..... واحترام الأب مقدس ... وسيطرته على مقدرات العائلة حق لا مناقشة فيه، ومواجهته بالنقد أمر حرام، وتراب أرض ميت أبوالكوم تراب مقدس، ولابد أن يكون مزاراً فى سيناء للعاملين المحرومين من البركة وهو من أجل تحقيق ذلك : قام بالآتى :

١- إصدار مجموعة من القوانين التى تضيق على نشاط المعارضين والتى يمكن استخدامها ضد المخالفين فى الرأى، ومن ذلك قانون حماية القيم من العيب، وقانون حماية الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعى .

٢- محاصرة نشاط الأحزاب . فقد كان من شأن استفتاء مايو ١٩٧٨ . قيام حزب الوفد الجديد بحل نفسه، وكان من شأن ملاحقة نشاط حزب التجمع والمصادرة المستمرة لصحيفته أن قام الحزب بحصر نشاطه فى مقاره والتوقف عن إصدار جريدته وسحب رخص إصدار جرائد الشعب والدعوة والاعتصام وعدد من الجرائد المسيحية .

٣- العمل على إسقاط مرشحى المعارضة فى انتخابات عام ١٩٧٩.

٤- التضييق على قنوات التعبير السياسى فى النقابات المهنية والذى أخذ شكلا صارخاً فى القيام بحل مجلس نقابة المحامين المنتخب...!!

٥- تردى قاموس التعامل السياسى. بحيث اتهمت المعارضة بالعمالة والخيانة والإلحاد ..

٦- تعقب الآراء المخالفة وقيام المدعى الاشتراكى بالتحقيق مع بعض المفكرين والسياسيين حول أفكارهم فيما سمى بالتحقيق السياسى أو المحاكمة السياسية، وهو مافتح الباب أمام الإرهاب الفكرى.

٧- سعى الحزب الحاكم - حزب مصر - ثم الحزب الوطنى إلى التفرد والسيطرة على وسائل الإعلام المملوكة للدولة، وعلى مناصب المحافظين ورئاسة اللجان البرلمانية الدائمة.(٢)

وثانياً : استطاع خلال ساعات قلائل أن يزج بالسجن بالغالبية العظمى وكل الزعامات السياسية والدينية المعارضة له فى أحداث سبتمبر الأسود، وبالعزل كما فعل مع البابا شنودة والتى لم يكن يتوقع أحد أن يفعلها ..!!

وثالثاً : استطاع السادات أن يعيد للقوى الرجعية الرأسمالية والإقطاعية - رموزها ودلالاتها، وكان أن شاركه فى الحكم والقرارات أصحاب هذه الرموز والأسماء العائلية المرتبطة تاريخياً بقهر الشعب والقوى الرجعية مثل آل غالى - كدليل على مصالحة الغرب ؛ أو الذين يرتبطون بمجموع القوى الرأسمالية مثل آل محفوظ وعثمان .

ورابعاً : وعلى النقيض استخرج من بين القيادات العمالية القيادات التى تشاركه وتساعده فى الاتصال بالقطاعات العريضة من عمال وفلاحين والمساهمة فى خداعها .

وقد أدى تتالى سياسات السادات واستمراريتها ونجاحه فى تضخيم شعرة الحرية - بتعدد الأحزاب إلى خداع الجماعات والقوى السياسية فى مصر ، ودخول وزاراته كبار المثقفين من اليمين واليسار فرحاً بالوهم وفتنة بالحرية الواهية ؛ فكان التخلى سريعاً عن تاريخ طويل من النضال شاركت فيه الجماهير الكادحة، واتخذ قرار الانضمام إلى السادات قلة من صفوة اليسار شاركت فى تكريس وهم الحرية ؛ فتغلبت النزاعات الفردية، وقويت ثورة الميول البورجوازية فى داخل الطبقات المثقفة وسادت النرجسية وطغت على ذواتهم وسادت .

وهكذا حقق السادات إقامة تعدد الأحزاب وإقامة الحزب الواحد المسيطر .فضلا عن إطلاق الجماعات الدينية فى مواجهة اليسار ومعه

أطلق الصراع الاجتماعى والصدام المسلح.

وكان من نتائج كل هذا – مشاركة الصفوة المثقفة بل غالبيتها فى هذه الفتنة الكبرى ... إلاَّ أنه كان من نتائجها الهامة والخطيرة ... هو استقلال حركة الجماهير عن أن يقودها هؤلاء – المشاركون فى الفتنة الكبرى وبحثها عن قيادات أصلية من بينها فكانت انتفاضة ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧ – ثورة الفقراء والجياع المضطهدين والعراة المغلوبين على أمرهم، فلم يكن غريبا – أن نلاحظ فى انتفاضة ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧ هؤلاء المثقفين المزيفين – ذوى البدل النظيفة والأحذية اللامعة يصطفون على الطريق يقفون فى بلاهة مشاهدين هؤلاء الفقراء المحرومين ينادون بحقهم وكأن الأمر لا يعنيهم .

وكان من أهم عوامل الانفجار، كما يقول الكاتب حسين عبد الرازق "أن المعاناة ليست عامة والأعباء لاتشمل الجميع، بل تقع على كاهل الفقراء وحدهم بالتضخم وارتفاع الأسعار والضرائب غير المباشرة ويشهد الناس كل يوم مفارقات مايجرى فى أعلى السلم الاجتماعى : أصحاب الملايين الجدد، بإنفاقهم الترفى المستفز، العمولات بمليارات الجنيهات تستنزف من الدخل القومى لحساب قلة من عناصر السلطة والأثرياء والمقربين (صفقات الأسمنت والحديد والطائرات البوينج وسرقات الأوقاف والمؤسسة التعاونية والبنوك ...) الرخاء المسف، القصور والطائرات والسيارات الفارهة .... خلو الرجل الذى يدفع لشقة واحدة مبلغ وقدرة ربع مليون جنيه ... إنفاق شخص واحد لألف جنيه - آنذاك - فى ملهى ليلى .....إلخ .. وكلها ترى فى الصحف"(٣) وكان لازدياد التمايز الاجتماعى، واتساع نطاق الفوارق بين الطبقات الكادحة والطبقات المستغلة، واستفحال النتائج الاجتماعية السلبية لظاهرة، ازدياد الفقراء فقراً وازياد الأغنياء غنى ، مما أتاح الاعتراف بقدر من التمايز السياسى لضمان استمرار نفوذ الشرائح الرأسمالية الكبيرة"(٤) – التى تتميز "بالعداء للفكر وتسطيحه ومحاربة الثقافة الوطنية التقدمية والكشف عن شبق بالغ الأهمية للحياة الاستهلاكية والمتع الحسية الرخيصة، ومحاولة التشبه بالطبقات الاقطاعية والرأسمالية الكبيرة السابقة"(٥).

وشارك هؤلاء التيار الذى يمكن وصفه باليمين العصرى على حد رأى الأستاذ حسين عبد الرازق والذى يتكون من الطبقة الجديدة التى تكونت أساساً من خلال ثورة يوليو من الفنيين والعسكريين الذين

استفادوا من تصفية الطبقات الاقطاعية، وكونوا ثروات واسعة دون مقابل . واحتلوا مواقع متقدمة فى قمة السلم الاقتصادى الاجتماعى .. ويتحالف مع هذه الشريحة قطاع هام من التكنوقراطيين وكبار موظفى الدولة والشرائح العليا من المهنيين ، وبعض من قيادات القطاع العام . هؤلاء شاركوا فى الترويج للديمقراطية الليبرالية ، ومغازلة طموح المثقفين فى تحقيق حرية بورجوازية تستجيب لحاجياتهم الفكرية والنفسية "(٦) .

واستقلت حركة الجماهير عن هؤلاء المثقفين الواقعين فى براثن هذه الفتنة الكبرى وعن أفكارهم وأساليبهم، وأخذ التأزم يزداد حدة بين عيش المبادئ، وتأمين المستقبل فى ظل إغراءات الحياة المادية، فالطبقة المثقفة وهى تعيش هذا التأزم "تحولت منذ بداية الثلاثينات إلى أذناب للسلطة وظيفتها أن تنضم للزفة السياسية لتطبل وتزمر بمناسبة وبدون مناسبة، والكوارث المتتابعة لم تسمح لها بأن تستعيد نفسها بل ازدادت غوصاً فى الوحل – حتى نصل إلى السبعينات فإذا بنا فى عالم من التعفن الذى لايمكن أن يخلق إلا الديدان . لقد أضحت مهنة المثقف أكثر أنواع المهن مصدراً للثروة والرخاء ولم نعد نستطيع أن نأمل فى كلمة الحق تصدر عن إيمان وثقة.(٧)

لقد أصبحت هذه الطبقة يؤثر فيها وضعها المادى ومركزها الاجتماعى، وكلما ازدادت حاجاتها المادية – تحول ارتباطها الأيديولوجى إلى ارتباط لفظى، وازداد ارتباطهم الفعلى بالوضع القائم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وأصبح المثقف على رأى "كوكتو"(٨) يجمع فى منطقه عدة متناقضات عجيبة ..... مطبخ فكرة مستورد من باريس، وأفكاره السياسية تستمد وجودها من موسكو، أما عقيدته الحركية فمردها إلى التقاليد الأنجلوساكسونية ؛ لذا لاتستطيع هذه الطبقة بتناقضاتها أن تكون تعبيرا وتمثيلا عن وعى الأمة، وعن استمراريتها وأصبحت خطورتها تتمثل فى أن تناقضات هذه الطبقة وتمزقها قد أصبحت تسرى فى المجتمع سريان الدم فى الجسد . والأخطر أن تستمر هذه الطبقة فى نقل تمزقها وتناقضاتها إلى الكادحين وأن تستمر فى كونها تكريسا للتبرير والانتهازية .

ولم تستطع هذه الطبقة أن تخرج من براثن أمراض التنشئة الاجتماعية . ويقول الدكتور/ عز الدين فودة أستاذ السياسة بجامعة

القاهرة "إن الفرد منذ أن يولد وهو يندرج في نطاق عدد من النظم الاجتماعية التي تعرف أشكالاً مختلفة من التدرج في ممارسة القوة والسلطان والسلطة . فإلى جانب تناحر المصالح بين فردين أو صراع طفلين على لعبة مما يؤدي إلى استخدام القوة المادية في محاولة لسيطرة كل منهما على الآخر . نجد أننا في طريق التدرج السلمي للنشاط الإنساني ننتقل من مرحلة السطوة الأبوية وسلطان العلاقة الزوجية إلى أوامر وكلاء السلطة في حياتنا المدرسية والوظيفية، والانقياد لمشايخ الطرق الصوفية ..."(٩) . فإذا انتهت مرحلة السلطة التعليمية كنا مستباحين لإرهاب العوامل المادية وقوة الحياة وسلطة رأس المال وضعف الفقراء والقهر وأحوال المعيشة في الحجرات الضيقة، وانحدار القرية في الروث، الفرد يتم تعليمه عن طريق التلقين والعقاب، وهو في صغره تافه لا قيمة له يتعلم أن العيب فيما لايراه الآخرون، ويتعلم إرضاء الآخرين ومسايرتهم وتملقهم "فهذا عمك ياولدى" !! . ثم أنه يواجه الكبت الداخلي، فالجنس محرم سرى وأنه "قد وجدوه بجانب باب الجامع"، وأن العصفورة هي السبب في كل مايرتكبه من أخطاء "وأن أبو رجل مسلوخة" سيظهر له إذا لم يساير، وهو يتعلم تثبيت الشئ بعد حصوله" مش قلت لك إن ده هايحصل" ويتعلم الخضوع من أجل الدفاع عن الذات وأن الوقت لاقيمة له بالإضافه إلى "معلش" ، ويتعلم أن العين لاتعلو على الحاجب "ومن أجبرك على مشى ميل فامش معه ميلين" ، "واللى تعرف ديته اقتله "هكذا يتعلم الجبن والخوف وتحل روح الهزيمة والتراجع محل روح الانطلاق والمبادرة. ثم أنه يتعلم أن يسمع "كلام بابا" ، "وكلام ماما" ، "وكلام جدو وتيته" وغيرهما . إنه يتعلم أنه يستطيع أن يدبر أموره إذا سمع الكلام وقبل الوضع الراهن ولم يتمرد عليه، فهو يكتشف أن ظهوره بمظهر الضعف يكسبه نوعا من القوة، وذلك لأن الثقافة التي ينتمي إليها تكافئ الضعف بقدر ماتعاقب التحدى، فيشب الطفل وقد تعلم المسايرة والخضوع والخنوع. وهو يتعلم ياه .. وياهوه ، وإيه ده، وتتضخم لديه العقد والمخاطر والعراقيل والعقبات فيقف عاجزاً ويصير لاحول له ولا قوة له . يمنعه من التحرك شعوره الداخلي بالعجز عن مواجهة هول الحدث، وموقف العجز هذا يزيد من هذا السلوك فيكون الكلام أكثر من الفعل والمشاركة.(١٠)

وتضيف هذه التنشئة الاجتماعية نتيجة لعلاقات التمييز في

العائلة والتناحروالشك في الذات والحد من قيمتها والشعور بالنقص والاعتماد على الغير والامتثال له ومواجهة من هم أضعف منهم . لقد أصبح من العادات اليومية للمواطن أن يجتر المزيد من الألَم والمرارة في كل لحظة من لحظات حياته، وأصبح على المواطن اليوم أن يتلقى الآلاف من الضربات المؤلمة، ابتداءً من آلام "دود المش" و "سوس الفول" ، وآلام البلهارسيا، وارتفاع الأسعار بل وظلم الإنسان لأخيه الإنسان وصراع الإنسان مع أخيه الإنسان فى المصنع والمستشفى والحقل . بالإضافة إلى طعنه بالغارات الإسرائيلية والأمريكية فى لبنان والعراق وسوريا ومصرع "سليمان خاطر" ، ثم يطعن كل صباح بخزايا عصمت السادات ورشاد عثمان الذى أعلن أنه يريد أن تؤخذ كل أمواله – ويتركوه يوما واحدا يتحدث عن الفساد السياسى . ثم قضايا توفيق عبد الحى وتجار العملة ، وعبد الخالق المحجوب، واستفحال وانتشار المخدرات ثم يرعبه التطرف الدينى ويردعه التوحش الأمنى.

فإذا حاول هذا المواطن المطحون أن يناقش وقف أصحاب الكلام والفطنة والعبارة يناقشون ويناقشون ثم يصفقون ويصفقون ، وينتهى الأمر كله بالتعجب !!!

وينصرف الجميع وكأن لم يحدث شئ .....

كل هذا .. ومازال المثقفون يخدعون أنفسهم ويخدعون الشعب، فهاهى الأهرام عالية راسخة وتلك أمجاد الماضى التليد ترفع رؤوسنا ، وهذه الجامعات والأكاديميات العلمية، وهذه القلاع ، وهذه الآثار، وهذه الصناعات صنعت فى مصر .... !!

إنهم يلجئون إلى وضع غمامة كثيفة على عقول هذا الشعب محاولين إيقاعه في التلذذ بالماضى والحاضر ويظل تابعا ساكنا داخل إطار الماضى مقيداً بالحاضر لايتجه نحو المستقبل والتغيير .

لقد أصبحت الحقيقة الاجتماعية القائمة تتشكل من السلبية واللامبالاة والتمركز حول الذات، والمصلحة الشخصية الآنية، والهرب من المسئولية الاجتماعية، وأصبحت هذه السمات أهم منابع العقل الاجتماعي ومنبع السلوك الإنسانى فى مستوياته الفردية أو الجماعية حيث حول الفرد من محرك وفاعل فى المجتمع إلى موضوع للفعل والحدث، وأصبحت فاعلية المثقف تتحد وتتشكل بالنظام السياسى في إطاره الكلى . ومن هنا كانت نشأة ماعرف باسم "اليسار الحكومى".

لقد نجحت السلطة فى إشعال النزعات التبريرية لدى طبقات المثقفين التى يتنازعها الطموح فى أن تعيش مبادءها وأن تؤمن مستقبلها – تلك النزعة التبريرية التى تساعد على حجب الحقيقة، وتغطية الدوافع السلوكية الخافية وراء تصرفاتهم، والتى تؤدى به إلى زيادة احتكاره لذاته وتمكنه من عيش تناقضاته بلا شعور بالذنب أو تأنيب الضمير .

واشتعلت معها ظاهرة التمويه التى تعطيه المقدرة على أن يبرر نفسه أمام الآخرين ويتيح له قول الشئ وفعل النقيض فلا يهمه إلا مصلحته . وأدى ذلك إلي فوضى فى الفكر والفن وهزال فى الإنتاج وانفصال متزايد عن المجتمع بين مدع للواقعية لايدرى أنه تكريس للخوف والمذلة والهروب والمسايرة كاتجاهات داخلية تعيشه وتعيش المجتمع وبين مدعى الفن للفن ، ومؤمن بالهندسة اللغوية ولايدرى أنه بادعائه هذا يعبر عن التجهيل والتعمية والهرب من المسئولية الاجتماعية ؟ وهؤلاء مثلهم مثل من يعيش محبوساً فى جسده ويدعى أن أدبه إنما يعبر فقط عن الذات الحبيسة داخل الجسد وحسب ..!!

وبحيث أصبحت هذه الاتجاهات والنزعات هى التى تشكل المنبع الداخلى للسلوك وأصبح أدب هؤلاء هو انعكاس لهذا المنبع الداخلى، فانفصلت هذه الطبقة عن الجماهير التى أخذت تشكل حركتها بطريقة مستقلة وبعيدة عن أن يؤثر فى حركتها هذا النوع من الأدب . والسلطة تدرك تماما قيمة هذه النزعات والاتجاهات ونتائجها من انفصال عن الشارع المصرى وحركة القوى المطحونة فتسعى بكل جهدها أن تحافظ على استمرارية تلك الطبقات بما آلت إليه آخذة إياها باللين تارة وبالبطش تارة أخرى، وبين إبراز هذه المجلة وبين سحب تلك ، ويسير هؤلاء المثقفون فى الركب وهم معتقدون أنهم الطليعة وأنهم مستقلون ..!! وقد خاصموا الواقع خصاماً مؤلما وفقدوا الطموح الحقيقى للتأثير فيه، وجلسوا ينتظرون عالم الفرح الآتى وفاتهم أن إرادتهم الفعالة هى جزء من تحقيق أى فرح ....."(١١)

لقد أدركت الأغلبية المطحونة دون فلسفات ومهاترات بناء على تجاربها وخبراتها السابقة أن السلوك الجماعى لحركتها لا يأتى إلا من خلال تفاعل تلك الطبقات المطحونة فيما بينها بما يخلق رأياً عاماً حول مستغليها . يستطيع أن يوجه حركتها بعيداً عن الترف الفكرى ولم يستطع أولئك الأدباء أن يعوا هذه الحقيقة، وأخذوا بشكل استفزازى تبريرى يؤصلون للفكرة القائلة بأنه لكل منهم قانونه الأدبى

الخاص وأن أولئك الأدباء المثقفين وهم مستغرقون فى ممارسة حرية نقد وتجريح الكلاسيكيات القديمة وإقامة تكوينات جديدة أنهم يساهمون فى عملية الوهم بالتحديد، ونسوا أن هذه الحرية لاتتحقق إلا بالتلاحم مع الغير والاستعداد باستمرار لدفع ثمن الحرية بالنزول إلى الجماهير ومن هنا يمكن أن يتحقق التجديد .

واعتقد هؤلاء أن النبوءة فى الأدب هى الكشف السرى لكمياء الحرف والإيقاعات الخفية للبنية التركيبية والبنية اللامرئية للطقوس العميقة داخل النص متخطين الواقع وحدوده إلى الآفاق الكونية ـ كما يرددون ـ ونسوا أن النُبوءة الحقيقية ماكان يمكن أن تتحقق إلا إذا فهمها الناس، ونسوا أن النُبوءة هى الكشف عن الواقع والسبق فى تحقيق التحول والتغير نحو الحرية الاجتماعية كمسئولية أولى للأنبياء . وساعد هؤلاء العديد من كبار النقاد ممن أصبحوا ضمن الشرائح العليا فى المجتمع ومن كبار موظفى الدولة، الذين مازالوا يبحثون عن رفاهيتهم النقدية التبريرية عن "قوس قزح" ..... التعبير الشعرى !! وألبسوا الغموض والعجز والتكثيف أثواباً من الأبنية الكلية والإيقاعات الكونية وهاجموا المؤمنين بأن للأدب دوراً فى إحداث التغير الاجتماعى وتكوين السلوك الجماعى نحو التغيير، فكان الاتهام بالمباشرة والنثرية والتسطيح والخطابية من نصيب كل من يحاول الاقتراب من الجماهير .

لقد أخرج هؤلاء الأدب والأدباء من ميدان التأثير فى المجتمع ، وأصبح أدبهم لايجد صداه إلا بين هذه الفئة القليلة، وأصبحت الجماهير فى المقابل تنظر إلى هؤلاء بشئ من الغرابة كأنهم قادمون من خارج حدود الكون .

المراجع

١- د. حامد ربيع، مقدمة العلوم السياسية، المرجع السابق، ص١٢١ .
٢- نفسه ص١٢٣.
٣- نفسه ص١٢٣.

obeikandl.com

الفصل الرابع :

الجانب الاتصالى

obeikandl.com

obeikandl.com

(بين محاور الاتصال والتلقى)

محور عملية الاتصال الإنسانى – هو بناء الفهم المشترك بين المرسل والمستقبل حول الرسالة وهذا يعنى أن هذه العملية لها أجزاؤها التى يمكن دراستها وتحليلها – حتى يمكن لهذا الفهم المشترك أن يتحقق من خلال عملية الاتصال .

وهى فى شكلها التحليلى تتكون من أربعة عناصر رئيسية تبدأ ـ كما ـ من مصدر الرسالة وماتحتويه ثم الوسيلة – ثم جمهور المستقبلين – ثم دراسة التأثيرات وردود الفعل .

وسواء أكان الهدف من هذه العملية : هو السيطرة والتحكم فى عقل الإنسان وسلوكه، أو قضاء حاجة اجتماعية إنسانية : مثل حاجة الإنسان إلى المشاركة فى الانفعالات والأحاسيس والعواطف، والآمال والتطلعات، والتعرف على الأخبار، ومتابعة التطورات أو الرقى بهذا الإنسان أو توجيهه سلوكيا ونفسيا، فإن الفرد أصبحت حياته اليوم وليدة عملية الاتصال المركبة والمعقدة .

هذه العملية أصبحت عنصرا هاما بل حاسما فى إحداث التغير الاجتماعى– حيث أصبح الاتصال عنصرا حيويا فى تغير الوضع القائم وتبنى الأفكار الجديدة والمستحدثة وتغيير سلوكيات الأفراد، واتجاهاتهم الهامشية، والتأثير على الاتجاهات المحورية – بهدف إحداث التعديلات والتغيرات فيها . هذه العملية بعناصرها الرئيسية السابقة، لها مجالها الحيوى الذى تعمل فيه والمملوء بالمؤثرات التى تواجهها الرسالة الأدبية، وهى فى طريقها إلى المستقبل، ومن ثم فإن بناء الفهم المشترك بين المرسل والمستقبل كثيرا ما يحتويه التشويش

بسبب هذه المؤثرات العاملة فى المجال الحيوى للعملية الاتصالية، والنتاج الأدبى بمجرد صدوره عن الذات الأدبية ينفصل ويصبح كيانا مستقلا يكون بمثابة رسالة لها وجودها فى البيئة المحيطة بها ويمكن ملاحقة هذا الكيان ودراسته دراسة موضوعية بناءً علي نظرية الاتصال، وهى تتعرض مثل أى رسالة إلى كل المؤثرات الموجودة فى البيئة المحيطة بها والتى تتعرض لها بقية الرسائل العاملة فى الحياة الإنسانية والنتاج الأدبى يعد بذلك أحد عناصر العملية الاتصالية الرئيسية ألا وهو الرسالة/ النص وتتعرض العملية الاتصالية على هذا النحو إلى مجموعة من المؤثرات تؤثر على سير الرسالة الأدبية/ النص بداية من عمليات الخلق والتكوين إلى التواجد فى شكل الرسالة ثم بث الرسالة وانتهاءً بردود الفعل على الرسالة ومدى استجابة المستقبل لها : وهذه المؤثرات هى :-

أولاً : الجماعات المرجعية التى ينتمى إليها الفرد :-

وهذه الجماعات قد تكون ذات أثر سلبى أو إيجابى فى المساعدة فى تدعيم الاتجاهات السابقة أكثر من إحداث التغير والتحويل فيها، وهى قد تشكل سلوكيات الأفراد وتصرفاتهم، وتكبت رغباتهم طبقا لما يسود فيها من أفكار هى طرق للتفكير، وتشمل (حقائق علمية – معتقدات دينية – وخرافات – أساطير – أدب – حكم – طرق شعبية)، أو معايير وهى طرق للفعل وتشمل القوانين – المراكز – القواعد – التشريعات – العادات – الطرق الشعبية – الأعراف – الذوق – العام – السكن – الطقوس – الرسميات – التقاليد – الأتيكيت – وطرق المعاملة" وهذه المعايير تحدد مايجب تبنيه من أنماط السلوك وتحدد الالتزامات الاجتماعية ودور الأعضاء فيها ، كما يظهر هنا تأثير الجماعة ومدى إرهابها للآخرين ولهم، وممارسة سطوة النشر فى نشر إنتاج أعضائها .

ثانياً : القيم والاتجاهات السائدة :-

القيم ويعرفها جاكوب، وجيمى مليتيك (بأنها هى مستويات معيارية يتأثر بها الإنسان فى اختياره بين بدائل السلوك المدركة). ويعرفها مظفر شريف (بأنها الروابط الوجدانية والشخصية التى تربط بين الشخص وبين موضوعات الاهتمام) .

أما الاتجاه فيعرفه "البورت" "بأنه حالة من الاستعداد أو التأهب العصبى والنفسى تنتظم من خلال خبرة الشخص وتكون ذات

تأثير توجيهى، أو دينامى على استجابة الفرد لجميع الموضوعات والمواقف التى تستثير هذه الاستجابة "

وسواء أكان الاتجاه هامشيا أو محوريا فإنه يعتمد على القيم الاجتماعية والمعتقدات والدوافع الكامنة وراء هذا الاتجاه. وهذه القيم والاتجاهات والدوافع الكامنة وراءها توجه السلوك وتدفع الفرد إلى اتخاذ مواقف تتواءم معها، وتبنى الأفكار السياسية والدينية والأيديولوجية، أو رفض هذه الأفكار أو تبنى أو رفض رسالة من الرسائل وهى تقف وراء العوامل المقاومة لقدرة الأفراد على التغير، واستجابتهم، واستعداداتهم للتحرر، وتزداد مقاومتها للتغير كلما اقتربنا من الاتجاهات المحورية الكامنة فى الذات .

ثالثاً : العمليات الانتقائية :

ويظهر منها مدى الميل والاستعداد للتعرض الانتقائى، والاختيار الانتقائى، والتذكر الانتقائى للرسالة الاتصالية لوسيلة الاتصال التى تتفق مع الذات الإنسانية واتجاهاتها المحورية، والتصورات الأولية والكامنة فى الذات، فيدفعها ذلك إلى الاتجاه نحو مايتفق مع الذات وليس مع ماقد يصدمها فى قيمها المحورية .

رابعاً : التأثير الشخصى والاتصال على أكثر من مرحلة :-

ويعرفه "روبرت ميرتون" بأنه :اتصال يتضمن تبادلا وجها لوجه بين المرسل والمستقبل ينتج عنه تغيير فى الاتجاه أو السلوك من جانب المستقبل " . حيث يخضع المستقبل للتفاعل المباشر مع المرسل مما يسهل على المرسل الإقناع والتأثير والرقابة دون أن يتفاداه المستقبل، ويظهر هنا دور قادة الرأى فى الاتصال الشخصى، والاتصال الجمعى بمالهم من نفوذ فى تدعيم الاتجاهات والقيم السائدة فى الجماعة والمجتمع . ومواجهة انحرافات أعضاء الجماعة وإعادتهم إليها ..... فضلا عن اقتراب المستقبل من الأشخاص الذين يعرفهم ويحترمهم ويستحوذون على ثقته فيلجأ إليهم .

والاتصال على مرحلتين أو أكثر – تنتقل فيه المعلومات من وسائل الاتصال إلى هؤلاء القادة مباشرة وهم الأكثر اطلاعا ثم تنتقل منهم عن طريق الاتصال المباشر إلى الاشخاص الأقل عرضه، وهم ينقلون بدورهم إلى من يعرفونهم . وهكذا تتسلسل العملية .

وهذه العملية يشوبها التشويش والترشيح والتوافق بين أصحاب هذه المراحل فى الاهتمامات والمصالح والآراء .

خامساً : القابلية للاقناع والتصديق والتحول :-

وتتحدد فى هذه العملية مستقبل الرسالة الأدبية ، بصفة خاصة ، حيث يلقى المجتمع بأفكاره وإيماناته على الرسالة كمرشح ليقبلها أو يلفظها.

سادساً : طبيعة وسائل الاتصال والقائمين عليها :-

حيث تختلف حساسية الأفراد تجاه الوسائل الرسمية وغير الرسمية وطبقا لانتماءاتها السياسية والأيديولوجية والاقتصادية وهى تبين مجموعة من التصورات المتوقعة تجاه الرسالة القادمة من الوسيلة أو القائمين عليها ، وثقة المستقبل فى كل وسيلة من الوسائل ثم طبيعتها هى نفسها طبقا للنظام السياسى العاملة فيه .

سابعاً : العوامل الفنية التى تعوق فهم الرسالة الأدبية فى البيئة الاتصالية :-

تبدأ هذه العوامل بداية من صياغة الذات الأدبية لقرارها الأدبى فى شكل النص الأدبى والعمل على توصيله ونشره خلال أى وسيلة من وسائل الاتصال الشخصى أو الجمعى أو الجماهيرى، فتخوض الذات الأدبية معركتها الأولى نحو إقناع أصحاب الوسيلة الاتصالية فى نشر إنتاجهم الأدبى وهنا تقابلها عقبات الشللية والجماعات، والأفكار، والمصالح، وأساليب العلاقات العامة . فإذا استطاع أن يخوض هذه المعركة، وأخذ مكانه فى الندوات، والصالونات الأدبية، والمهرجانات وسمح له بعرض وجهة نظره وقراره الأدبى فى اللقاءات الشخصية، أو عبر وسائل الاتصال الواسعة الانتشار كالمجلات والصحف، والنشرات والإذاعات، والتليفزيون، أو الجمع بين أكثر من وسيلة فى وقت واحد- كأن يوزع القصيدة مكتوبة على الحاضرين الذين يتابعونها صوتا وقراءة.... فإذا وصلت الرسالة إلى المستقبل يقوم بفك رموزها وتفسيرها، واستخلاص المعانى منها .... وتتعرض هذه العملية لعدم التيقن والاستيعاب والفهم بل وقد تتوقف عند العمليات الأولى فى الإدراك بسب عدم نفاذ كلمات الرسالة إلى عقل المستقبل فحين تتداعى الكلمات قد يكون انسيابها غير طبيعى أو هناك فجوات بين أجزائها، أو عدم ترابط بين الأفكار، أو طول الفقرات، أو زيادة تركيب الجملة، أو للإمعان فى الغموض، أو التكرار الممل والرتيب أو لاستخدام عبارات وألفاظ ذات دلالات لايعنيها ولا يعرفها إلا المرسل نفسه أو للبذاءة التى قد يحتويها حين

يتوارى قائلها خجلا أو ينكس رأسه كسوفا من الحاضرين .

وكذلك فإن مقدار الوقت الذى سيعطيه المستقبل للرسالة يؤثر عليها، وهو يختلف من الصحيفة، عنه فى المجلة، عنه فى الكتاب، عنه فى وسائل الاتصال الجمعى والمواجهى مثل المسرح والندوات والمهرجانات، عنه فى وسائل الاتصال الجماهيرى، ويتداخل ذلك مع عمر الوسيلة، فعمر الكتاب أكبر من عمر المجلة، وتلك أكبر من عمر الصحيفة، وهذا كله يدخل فيه التوقيت الذى ستبث فيه الرسالة .

وتظهر الرسائل المنافسة والمصاحبة للرسالة المراد توصيلها، وتظهر هنا عوامل الجذب والعرض وشدة الانتباه، وسلامة النطق والتعبير خاصة فى الوسائل التى تتميز بالمواجهة مع المستقبل، ووضوح الصياغة وتصميم البنط فى الرسائل المكتوبة والمقروءة . وموقع الرسالة فى الوسيلة، وتظهر هنا دور المصالح الشخصية والاقتصادية والسياسية فى إبراز رسالة الأدبية ماعن رسالة أخرى .

ثامناً : الجوانب الذهنية والنفسية التى تؤثر على استقبال الرسالة الأدبية :-

وهى تبدأ من الحالة الذهنية والنفسية التى يكون عليها المستقبل وقت تلقيه الرسالة ومن ناحية أخرى الوسيلة - فقد تكون اللهفة بالنسبة للصحف والهدوء لقارئ المجلات والتروى للكتب، والهامشية للإذاعة، وتركيز الانتباه بالنسبة للتليفزيون ، وشدة الانتباه والتوتر والعنف والحماس فى المؤتمرات الشعبية والمظاهرات والاضطرابات العمالية ، وجلسات الأنس والتندر وحلقات الصخب والخمر والحشيش والبانجو حيث العجز والسراب والوهم .

تاسعاً : عوامل الإخراج الفنى :-

وهى تختلف من وسيلة إلى وسيلة، ويظهر فى المطبوعات سوء الطباعة، أو صغر حجم البنط ورداءة الورق مما قد يؤدى إلى عدم التوصيل الجيد، والتنفير من شرائها واستكمال ومواصلة القراءة، وفى الندوات والمؤتمرات الشعبية والمهرجانات يؤثر حجم المؤتمر على المقدرة على التوصيل للجميع، وقد تحول الهتافات المتعددة والمتداخلة، أو المتضاربة دون التوصيل الجيد، وكذا ضيق المكان أو اتساعه، أو أن تكون "الميكروفونات" غير قادرة على التوصيل لخلل كهربائى، أو عدم وجود "ميكروفونات" فى اللقاءات الجماهيرية والاضطرابات فى الأماكن العامة، وفى الصالونات الأدبية يظهر تأثير ضيق المكان

وعوامل الإضاءة، ومقدار الصداقة لصاحب الصالون، وعدد مرات حضوره ومدى ارتباطه بجمهور الصالون ومدى تحول الصالون إلى وسيلة لتفريغ الهموم والهرب من الواقع والذات .

عاشراً : عوامل تؤثر على كل من المستقبل والمرسل فى الإرسال والاستقبال وتحدد مواقفهما من أى مؤثرات وأى هدف وهى:-

(١) الحاجات الإنسانية وقسمها "آلن" إلى :-

أ- *الحاجات الأساسية وهى :*

١- الأكل ٢- الشرب
٣- الراحة ٤- تجنب الألم والخطر
٥- الجاذبية الجنسية
(ولعلها أبرز هذه الحاجات عند هؤلاء) ٦- التمتع بحب الآخرين
٧- القبول الاجتماعى ٨- التفوق على الآخرين
٩- قهر الصعاب ١٠- اللعب والتسلية

ويضيف عليها "هاتوك" طول العمر، والتحرر من الخوف والخطر

ب - ***الحاجات الثانوية وهى :-***

١- الصحة ٢- النفوذ
٣- الراحة ٤- الاعتمادية
٥ - الربح ٦- حب الجديد والجميل
٧- النظافة ٨- حب الاستطلاع
٩- الاعلام والتعليم ويضيف إليها "هاتوك" كسب الصفقات(وهذه أبرز الحاجات الثانوية لدى هؤلاء) .

وهذه الحاجات تكمن وراء الحاجات النفسية الكامنة فى الفرد والذات الأدبية .

(٢) الحاجة إلى التقدير الاجتماعى :-

فى أن يكون للفرد وللذات الأدبية المكانة الاجتماعية والدور الاجتماعى ليكون مقبولاً من الآخرين ومقدراً من الذات . وإحباط هذه العوامل يعنى حرمان الفرد من كل هذا فيشعر بالعزلة والاغتراب واحتكار الذات وبالحقد على مجتمعه ويبرز هنا دور المثقف والأديب فى إعطاء مكانة للآخرين المشتركين معه فى النضال الاجتماعى والثورة والمشاركين فى الصمود والنجاح - كما يبرز أهمية تحرير

الإنسان من الخوف والخطر والتأكيد على قيمة الكفاح ومواجهة الإنسان للظلم والتأكيد على تعليم الإنسان كيف يكون حراً والتأكيد على أهمية دوره ومكانته فى حياته ومجتمعه .

(٣) الحاجة إلى الانتماء إلى جماعة تتقبله وتدافع عنه :-

ويأتى دور المثقف فى خلق الجماعة القوية التى تدافع عنه، وعن مصلحة الجماهير العريضة لا أن يتعالى على المجتمع أو يضطر إلى المسايرة والتوفيق مع الجماعات المرجعية لعدم إظهار رفضه لمعاييرها وسلوكهاوتلعب الجماعات الأدبية المنحرفة عن المجتمع دوراً تخريبيا للفرد وبالتالى تستهدف المجتمع وتستهدف فض انتماءات الأديب إلى وطنه وجعله بلا هوية ولا مرجعية ومن ثم يشعر بالغربة خارج إطار هذه الجماعت فيزداد الارتباط بها فى الوقت الذى يزداد ابتعاداً عن المجتمع ومن ثم يتحقق هدف هذه الجماعات في فصل الأديب المثقف عن وطنه وعن دوره الاجتماعى .

(٤) الحاجة إلى التعبير عن الذات :-

وهى حاجة تدفع الفرد إلى التعبير عن ذاته سواء فى عمل أو موقف والتعبير عن شخصيته وإظهار تفوقه، وقمع هذا الدافع أو التعالى على الجماهير وزجرها واعتبار أن الصفوة الثقافية والسياسية هى القادرة وحدها على تحمل المسئولية . أو لجوء الذات الأدبية نفسهاإلي قمع هذه الحاجة عن طريق اللجوء إلى الغموض والتكثيف ، وخوفا من الإرهاب ، أو نتيجة للمسايرة والتمويه . أو لجوء الذات الأدبية إلى قمعها نتيجة للخضوع والخنوع والاتكال علي الغير – قد يؤدى هذا إلى أمراض نفسية خطيرة تؤثر على حركة التطور والتغير الاجتماعيين . وتلعب هذه الحاجات دورا هاما فى إظهار حيوية المجتمع وتطوره ومقدرته على الابتكار والحرية في التعبير، وتحقيق عملية التفاهم المشترك كهدف من العملية الاتصالية .

كبت هذه الحاجات أو قمعها سواء كان عن طريق المثقفين ، أو عن طريق السلطة التى تستخدم هذه الحاجات بمهارة لتكبيل المثقفين من الحركة، أو الضغط عليهم، يؤدى إلى حالات من المرض النفسى – ابتداء من الهستريا النفسية والصداع والقلق والشلل والاعتلال النفسى ومرده فقدان الأمل والطموح، والاستسلام لليأس والهزيمة والتقوقع داخل الذات والإيمان بوحشيتها وبذاء تها، وفى ذلك قال العلماء :-

- "إن الحركة الفردية فى سعيها نحو الإشباع أصابها نوع من التعويق الذى لم يستطع الفرد أن يتغلب عليه أو يتخطاه أو يتخلص منه".

- " إن هذه العقبة خلقت نوعا من رد الفعل المستقل - بحيث توصف بأنها فى ذاتها بمثابة منبه مكره للطاقة أو للحركة على أن تتجه فى مسارها إلى قنوات جديدة، ماكانت لتتفق مع الحاجة الأولى الأصلية" .

وينتج عن هذا تجنب الواقع المؤلم، بسبب الفشل الاجتماعى مما يؤدى إلى خداع الذات، واللجوء إلى التبرير والتمويه والتعمية والغموض، وإعلان مبادئ تنظيرية قد تتناقض تناقضا فعليا مع سلوك الأفراد، حتى يجد الفرد نفسه قد أصبح مقتنعا بوجوده فى المجتمع هكذا ... ومشاركا دون أن يدرى فى مساندة قوى الظلم والطغيان ويكون الغموض وإمعان التنظير فيه ، والانكفاء على توحش الأنا بديلا وتعبيرا عن الذات الأدبية وعن الكبح والقمع والتخويف والتأثيم، والشعور بالذنب، والكبت تجاه الهرب من الواقع والتخلى عن النضال .

حادى عشر : عوامل التكلفة والجهد :-

وهى عوامل تتداخل فيها مستويات الدخل الفردى ومقدرة الأفراد على متابعة وشراء المجلات والكتب أو الانتقال للمشاركة فى الندوات والمهرجانات واللقاءات ثم الجهد الذى سيبذله الفرد للحصول على الرسالة، وهل يتلاءم مع الجزاء الذى سيحصل عليه وهى عوامل أساسية تساهم بشكل مباشر فى التعرض للرسالة الأدبية والفكرية . ولابد من الإشارة هنا إلى ارتفاع أثمان الكتب اليسارية واليمينية على حد سواء، وهى تأتى كإحدى نتائج خضوع المثقفين لعامل الربح فى المقام الأول، أو خضوعهم لدور النشر وطمعها سواء كانت يمينية أم يسارية . كما يظهر هنا الدور المريب فى مكافأة الأتباع الذين يمالئون أصحاب الكراسى الثقافية ومنظرى الجماعات الثقافية المرتبطة بها وحرمان الآخرين من هبرات المهرجانات واللقاءات والمؤتمرات .

ثانى عشر : عوامل متنوعة من البيئة الاجتماعية :-

مثل الحرمان من الخدمات الأساسية فى الريف المصرى وبعض مناطق المدن مثل الكهرباء والتعليم والصحة وسوء التغذية والإعلام والمياه الصالحة للشرب، وانتشار المستنقعات، وأكوام القضلات

والمساكن الرديئة في الريف وسوء المواصلات، وسوء التغذية والفقر والجهل والأمية، وإرهاق المواطن بالضرائب غير المباشرة، وهى عوامل تؤثر على التركيب النفسى والاجتماعى والسلوكى للسكان .. وتؤدى إلى العزلة الاجتماعية والنفسية، وضيق الأفق وعدم التطلع إلى المستقبل، وفقدان الطموح والتقمص الوجداني والشعور بعدم المقدرة على تغير الوضع القائم، وتحديه وعدم المشاركة فى الأحداث العامة .

وكل هذا يشكل تحديات أساسية وخطيرة لطبقة المثقفين التى يجب أن تسأل نفسها: ماذا قدمت لتحرير الإنسان المصرى من هذا الواقع الأليم ؟.

ثالث عشر : المقررات التعليمية :-

التى تمنع الابتكار وتقتل روح الإبداع وتبث أفكار تقليدية وأنماط من السلوك المتخلفة وتعتمد علي التلقين والترديد والحفظ إلى درجة الامتلاء التى يتقيأ معها الفرد كل ماتم تشريبه إياها فيخرج من مراحل التعليم وهو لا يعى ما ابتلعه .